إشكالية العلاقة بين الأدب و العلوم الشرعية

أ. عبـــد الوهاب بوشلـــيحة
جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة–

إن القول بالعلاقة بين الأدب و العلوم الشرعية ، هو الإقرار بوحدة العوامل التي شكلت إطار العلاقة التي تمت تاريخيا بين هذه الحقول المعرفية ، و بالتالي البحـــث في أساسيات العلاقة و في نظامها و آليات إنتاجها داخل الثقافة العربية الإسلامية . و من ثم فإن مقاربتنا تصدر عن أطروحة تقول << إذا جاز لنـــا أن نســـمي الحضـــارة الإسلامية بإحدى منتجاتها ، فإنه سيكون علينا أن نقول عنها إنها حضارة فقه>>[1] و عندما نقدم الفقه بوصفه إطارا فكريا و معرفيا شاملا في الثقافة العربية الإسلامية << فإنما نريد من وراء ذلك تأكيد الحقيقة التالية و هي أن الفقه الإسلامي كان أقـــرب منتجات العقل العربي إلى التعبير عن خصوصيته >>[2].

و قد لاحظ الدارسون أن الفقه هو المجال الوحيـــد الـــذي تلاقـــت فيـــه مختلـــف الاختصاصات من أدب و لغة و علم كلام وغيرها ، فالعلماء و المؤرخون و الأدبـــاء أسهموا في دفع آلية الكتابة التشريعية و مناقشة مختلف القضايا الفكرية و المعرفية التي أنتجها الواقع العربي[3].

لقد حققت هذه الإسهامات منذ القرن الأول الهجري حتى القرن الخـــامس تجديـــدا ملحوظا ،تطلبه النظام المعرفي ، فكانت طروحاتهم و كتاباتهم و مؤلفاتهم فتحا فكريا و فلسفيا ،استجابت له الروح العربية و تاريخيتها .

***مقاربة في تاريخية الفقه :**

إن تاريخية العلوم الشرعية —الفقه- تقرأ إذن في ضوء المركزية الفقهيـــة ، و صـــلتها بسلطتين : سلطة المعرفة —علوم القرآن و علوم الحديث- و سلطة الحاكم -. ففـــي هذه الثنائية تشكلت دائرة المركزية الفقهية ،و ارتسمت فعاليتها ، و انتضـــمت لهـــا الأسس و القواعد و المعايير .فالفقيه ارتبطت علاقته بالمرجعية التي كانت يمنح مادتـــه من سجال معرفي إيديولوجي ، نظرا لارتباطه بحقل سوسيو ثقافي تتفاوت فضـــاياه و مواضعه تبعا لمساءلة الواقع و الجمهور و المصلحة .و لارتباطه ثانيا بمحك الســـلطان << و بالأوجه المختلفة التي تتخذ —تلك العلاقة- إقداما و إحجاما، تعاطيا إيجابيا و تجاف و في مختلف هذه الصلة — أوالصلات- تتمظهر الأشكال المتباينة لالتزام الفقهاء بمرجعيتهم الفكرية و إخلاصهم لرؤيتهم للعالم .[4] >>.

إن المركزية الفقهية في إطارها التاريخي ، توسعت خريطتها و مقولاتها الفكرية بـــين الفقهاء ، و باتت تتسع كينونة رحبة لتيارات أسست فيما بعد لمذاهب فقهية أربعة ، اكتسحت الحقل المعرفي العربي قديما ، و كتب لها أن تمتد لتشكل الوعي الفقهي العربي الحديث و المعاصر —سواء كان وعيا واعيا أو زائفا- و في حدود التأسيس و التأصيل الفقهي أهم ما ميزها — أي المذاهب الأربعة — أن معادلتها ذات طـــرفين — طـــرف يعتمد استراتيجية النقل ، و آخر استراتيجية العقل . غير أن الذي لا يعتريه الشك أن هذه المركزية التي شكلت تاريخيا رؤية للعالم ، و فسرت الحركية التاريخيـــة العربيـــة للدولة سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا ، لم يأخذ الفن و الإبداع و الجمال نصـــيبا في طروحاتها و آرائها ، بتعبير آخر أن نظرية الفن أو النظرية الأدبية و الحركية الإبداعية بقيت خارج اهتماماتها و مقولاتها ، أي خارج الفعل التاريخي . ذلـــك أن الســـياج

الدوغمائي الذي حددته آلية الفقه دشنت منذ فاتحة عهدها قاعدة << تتأسس المعرفة فيها – على الأخلاق .إن المعرفة هنا في حالة الفكر –الفقهي – ليست اكتشاف لعلاقات التي تربط الظواهر بعضها ببعض (...) بل بقي التمييز في موضوعات المعرفة (حسية كانت أو اجتماعية –أو سياسية – بين الحسن و القبيح ، بين الخير و الشر>>[5] و بالتالي فإن المركزية الفقهية اعتمدت في تقديرها للإنسان والعالم على مفهومها للأخلاق .و الحقل الدوغمائي الذي أنتجته .فالقيمة الكبرى لهذا المناخ العقائدي : لا للمساءلة و العقلانية ، و من ثم فإن منهجها محدد الأطر و المرجعية ، لا يمكن أن يقوم أي كان بإعادة تشكيله أو إعادة النظر فيه .

***الأدب و الفقه و أزمة المفاهيم :**

إن من ظواهر الأزمة في المفاهيم الأدبية و الإبداعية بين الأدب و الفقه ، و ما يبدو فيها من تفاوت شديد بينهما ، إنما يرجع في الواقع إلى اختلاف المرجعية بمعنى << غياب الحد الأدنى من الاتفاق حول التصورات الفكرية و الذهنية المختلفة – للعلمية الإبداعية – فضلا عن غياب الحوار الحقيقي حوله – أي مفهوم الأدب والإبداع – فهما لم يتمكنا – و ربما حتى الآن– من الاتفاق على ما يتداولونه من مفاهيم و مصطلحات ، و لذلك ظل كل منهما مجهولا بالنسبة للآخر ، و حتى عندما نبحث في مبادئ و أولويات مفهومية و اصطلاحية كالإبداع و التجديد (الحداثة) الأصالة يبدو أن كل منهما لا يعرف مفهوم الآخر ، بل لا يحاول كذلك أن يعرفه[6] .

فهناك إذن قطيعة ابستيمولوجية – معرفية – في التواصل الفكري و الفلسفي بين الفقيه و الأديب و الناقد . و كان يفترض أن هذه القطيعة ما كان لها أن تكون لو تفتح الحقل المعرفي للعلوم الشرعية ليلتقيا حول محور واحد ، و هو حداثة الجيل في زمانه و مكانه ، ثم حداثة الأجيال و صيرورتها التاريخية . لأن في الواقع << ليست هناك حداثة مطلقة ، كلية ، و عالمية ، و إنما هناك حداثات تختلف من وقت لآخر و من مكان لآخر ، بعبارة أخرى الحداثة ظاهرة تاريخية ، و هي ككل الظواهر التاريخية

مشروطة بظروفها ، محدودة بحدود زمنية ترسمها الصيرورة على خط التطور ، فهي تختلف إذن من مكان لآ خر ، من تجربة تاريخية لأخرى>>[7] و ما تستلزمه طبيعة العلاقة الافتراضية بين الأدب و العلوم الشرعية هو <<تحديث الذهنية ، تحديث المعايير العقلية و الوجدانية >>[8] و الرؤية للعالم ، للإسهام في إنتاج رؤية عصرية تمتد إلى القطاع الأوسع من الأدباء و المثقفين و الفقهاء و تطال الحقل الأدبي و الإبداعي لتنتج نظرية نقدية توجه الحركة التاريخية للإبداع باختلاف المرجعيات و المظاهر الجمالية للنص .

غير أن الثابت تاريخيا ، أ، الفقهاء و طروحاتهم بقيت بمنأى عن كل رافد أجنبي ، من شانه أن يوسع دائرة الرؤية و المقروئية ، و بقي الحقل المعرفي الذي أنتجه السلف الذي كان قريبا من عهد النبوة. وبالتالي كان من الطبيعي أن تفهم الرؤيا الشعرية في ضوء الرؤيا التي وضعها الفقهاء. فمنذ اللحظة الأولى حرصوا على أن يربطوا بين اللغة والدين ربطا جوهريا. وقد عني هؤلاء العلماء باللغة العربية أساسا. و لم تكن هذه اللغة في نظرهم اصطلاحا وتواضعا، بل كانت توفيقا ووحيا، أو بتعبير آخر، لم تكن نتاجا بشريا اجتماعيا وإنما كانت تنزيلا وتعليما من عند الله للإنسان[8].

و في تقديرنا أن الظاهرة الفقهية التي أسست و أصلت للقراءة الدينية الأخلاقية للفعل الإبداعي ، لم تحاول التفاعل مع روافد ثقافية ، و تيارات فكرية و فنية و جمالية من شأنها أن توسع من دائرة المفهوم الأدبي و الفني للعملية الإبداعية .

من الرؤية الفقهية إلى رؤية الحداثة :

إن رؤية العلوم الشرعية للأدب و الفن و الجمال عامة و ما أنتجته من رؤية مركزية حول هذه الحقول المعرفية ظلت إلى حد تاريخي —في تاريخ الأدب العربي — تشكل رؤية نقدية تستكين لمعايير و مقاييس الذوق الاديو أخلاقي ، و بالتالي فإن حيازة الحقيقة التي جاد بها الفقهاء من خلال قراءاتهم للنص القرآني و السني ، و عززها فعل القراء بوصفه فعلا غير متجاوز <<منح الفقيه —(...) الشعور الجاد بإيجابية الأفكار

التي كان يزرعها في النصوص –الأدبية – و في النسيج المجتمعي باطمئنان لا يهزه قلق ، أو يعرض له استفهام .كان وعيه ثمرة تلك الحقيقة المطلقة ، بمقدار ما كان حارسا لها ضد أخلاط فكر المتسربين بآرائهم إلى داخل دار الإسلام من أهل الملل و النحل>>[9]

إن العلوم الشرعية المنكفئة على آراء أخلاقية في تقييم النص الأدبي و الإبداعي، و الحكم عليه فتحت أفقا معرفيا للأديب و حداثته التي تسلحت بالشجاعة <<فعرضت لسلطة النقد مجمل معمارها الفكري (...) فهي إذ تجرا على مساءلة بداهاتها و عرضها على الفحص و التشخيص المعرفيين ، لمراجعة مواطن العطب ، و الخلل في نظام اشتغال الفكر و الثقافة ، إنما تنجز وظيفتين على مستوى فائق الأهمية هما : تزويد الوعي بتقنيات أ، آليات لترويض الأفكار على التأقلم مع متغيرات المعرفة و التاريخ لاجتناب كبائر الانغلاق و الجمود ، ثم تنمية قدرات الثقافة (...) في الوظيفة الأولى يجري تمرين الفكر على الإصغاء للتاريخ و التراكم الموضوعي ، فيما يجري في الوظيفة الثانية تمرينه ي رأوا أن الوقت قد حان لإحداث نقلة نوعية في الإبداع و الإبداعية ووضعها في إطار لا يتنكر للمنظور الديني الأخلاقي ، لكنه يدخل في أفق مثاقفة كونية واعية لا يربطها زمن و لا يحدها مكان[11]

لقد تأثر نقادنا في القرون الخمسة الأولى بالبلاغة و المنطق و نظرية الشعر التي أفرزتها الثقافة اليونانية ، و من هنا أصبح <<التأثير اليوناني على العقل–والإبداع– العربي حقيقة تاريخية لا نستطيع إنكارها (...) و ما يجب أن نعترف به هو فضل الفكر اليوناني غير المباشر في تطوير نظرة أدبية تقنن للإبداع الشعري ، و تحكم شروط إنتاجه و تقويمه (...)و من ناحية ثانية ، فقد جاء التأثير اليوناني في المرحلة التي كانت فيها حركة التجديد في الشعر العربي تخوض معركة قاسية مع أنصار القديم و الثرات – الفكر الدوغمائي – و قد قدم آنذاك الفكر اليوناني مبادئ التفكير العلمي التي رحب المجددون بها كأسلحة في معركة التجديد >>[12] و ما يطرح

بشأن التأثير ثم التنظير للعملية الإبداعية العربية من أن << الإبداع هو الذي يقـــنن للإبداع و التنظير جهد تال للإبداع كما قنن الإبداع ذاته>>[13] فـــإن العلاقـــات الفكرية و الثقافية بين الآداب غالبا ما تترك بصمات ، تعد مع الزمن خميرة الوعي الأدبي و النقدي ، الذي [illegible] خصوصيتها ضمن حلقة الثقافة الواعية بمختلف دروب المعرفة الإنسانية .

في ضوء ما سبق ، فإن الدارس يلحظ أن دائرة العلوم الشرعية ، و إن تقلـــص إطـــار مفاهيمها النقدية الأخلاقية في قراءتها للنص الإبداعي ، و العملية الإبداعيـــة، فقـــد فسحت المجال تحت ضغط الحركة التاريخية في تلاقحها مع الآخر، ثم تفاعلها معـــه، الذي تولد عنه رؤية و منهج في استقبال النص واستهلاكه. كل ذلك مكن لحداثـــة الرؤية و رؤية الحداثة من التغلغل داخل الفكر العربي و مفاهيمه الفلسفية الجديدة، التي شكلت إنسانا ناقدا، يعي أن قيمة الفعل الإبداعي تكمن في التأثر بين الأنا و الآخـــر << و لكن هذا التأثير ما كان يمكن أن يتحقق، و أن يتحول إلى تيار مؤثر مـــا لم يكن تعبيرا عن بنية اجتماعية محلية، و موقف اجتماعي>>[14] عربي، يحم شيئا مـــن الخصوصية العربية .

***الراهن و مجال العلاقة الفقهية الأدبية :**

إن المركزية الفقهية التي شكلت في إطارها الواسع و العميق خصوصـــية الحضـــارة العربية الإسلامية و التي ميزت فكرها و ثقافتها ، أصبحت تشمل رؤية للعـــالم مـــن خلال منظومتها الفكرية ، حاولت من خلالها أن تبني خصوصية عربيـــة إســـلامية في بعدها العقدي الأنطولوجي.

إن هذا الاتساق ميزها إلى ين <<ذلك أن فترات الانقطاع التاريخي قد جزأتها على نحو —جعل- منها وحدات منغلقة على ذاتها>>[15] بحيث يبطل القول ألآن المركزية الفقهية تجسد امتدادا عضويا في التاريخ العربي الحديث والمعاصر . نتساءل إذن ما هي النتيجة التي ترتبت عل القول بتلاشي هذه المركزية ؟وفي السياق نفسه،سياق المساءلة

تطرح إشكالية الفقهية الذي مثلها في التراث العربي ، حيث جمع بين اللغة (لغوي) الأدب (شاعر ،خطيب)سياسي (علاقته بالسلطان ودوره في صنع القرار السياسي) الدعوة (داعية إلى الله) و من هنا تطرح الإشكالية بصيغة أخرى . هل حافظ الفقيه في التاريخ العربي المعاصر على هذه المركزية ؟ إن الحركية التاريخية للمجتمعات العربية الإسلامية ، كشفت أنه قلما نجد من الفقهاء من اجتمعت لديه هذه الحقول المعرفية المعقدة .وبالتالي ألم يفسح الفقيه المجال لمركزية العقلانية –في التاريخ الحديث و المعاصر – التي أصبحت تحمل خصوصية العصر ؟ في ضوء هذا المعطى فإن الأديب و المفكر العربي المتنور و قد أيقظه تفوق –الآخر–الغرب ، قد أصبح يدخل في اعتباره أنه يحمل في أعماقه ميراث قيم انحدر إليه من حضارة عظيمة –ميراث الجاحظ ، الحلاج،أبو حيان التوحيدي و غيرهم – و هو ما كان يضفي عليه قيمة ذاتية جديدة ، و ما يدفعه إلى تحطيم قيود التخلف و الخضوع، و إلى تمزيق الأطر الصلبة لهذه– المركزية الفقهية– و ما بقي منها–التي اكتشفت عن ضيقها و عن وحدانية بعدها في فهمها للأدب و الفن و الجمال بل و رؤيتها للعالم[16].

و طالما أن الأديب أصبح يعيش وسط عالم تتعدم فيه الحدود ، و تضيق المسافات ،فإن معرفته لذاته معرفة حقيقية لا يمكن أن تتأثر ما لم حقيقة الآخر، و من هنا استفاد من منجزاته و طروحاته الأدبية و الفكرية بدءا بنظرية المحاكاة ، نظرية التعبير ، نظرية الخلق ، نظرية الانعكاس ، نظرية أنواع الأدبية، بحوث المدرسة الفرويدية و المدرسة النبوية و التفكيكية . أصبح من الطبيعي أن تفرز الحركية التاريخية بإنقطاعاتها الحضارية فكرا متغيرا و متميزا و مختلفا وصل في وضع المركزيتين –المركزية الفقهية ، و مركزية العقلانية –على طرفي نقيض ، على أساس، الدين لا يقدم محتوى جمالي و فني للإبداع و النص الإبداعي بأجناسه المختلفة الشعر، القصة، الرواية المسرحية .و بالتالي لم يستبعد من دائرة مساءلته إشكالية اللغة بوصفها حاملة للفكر.

ها لغة الأعراب أكثر تأسيسا للفكر العربي عامة ؟ و أن لغة المعاصرين و المحدثين ليس

<<بإمكانها أن تخلق معاني و ارتباطات لم تكن مألوفة مكن قبـــل>>[17] ألا يحـــق للمعاصرين أن يعيدوا النظر في مثل هذه المفاهيم الفكرية و اللغوية لأنها حســـمت في غيابهم ؟ ألم تعد الأجيال العربية مثلا عبر تاريخها الطويل النظر في جماليـــة القصـــيدة العربية ؟ألا يحق لنا الإعتراف أن القصيدة العربية أصبحت تاريخية ؟ فقد تم تقريبا لكل جيل بناء نسيج قصيدته في ضوء مفاهيمه الجمالية(الثورة على الأطـــلال ، المقدمـــة الخمرية، الموشحات الأندلسية ، القصيدة الحرة ، القصيدة النثرية) في ضوء ما سبق، فإن الإبداع و الخلق الفني على نقيض العلوم الشرعية فلئن كان المثل الأعلى للعبـــارة في العلوم الشرعية هو أن تكون واحدية المعنى لا يداخلها لبس ولا غموض، ولا يتعدد تفسيرها عند القارئين فإن المثل الأعلى للقول الشعري أو القصصي أو الروائي، هو أن يحمل من المعاني ما لا حصوله، بحيث تعدد زوايا الرؤية عند مختلف القراء، و من هنا تنبع العملية الإبداعية، و تتسع دائرتها في فعل القراءة و التأويل دائما، لترسم حـــدود العلاقة بين الأدب و العلوم الشرعية و تضع قاعدة الفقه الأدبي أو فقه الأدب .

الهوامش :

[1] محمد عابد الجابري :تكوين العقل العربي :مركز دراسات الوحدة العربيـــة ط4 1989 بـــيروت لبنان ص96

[2] المرجع نفسه : ص 97

[3] المرجع نفسه : ص 97

[4] عبد الإله بلقزيز : نهاية الداعية –الممكن و الممتنع في أدوار المثقفين .المركز الثقـــافي العـــربي ط1 2000 الدار البيضاء المغرب.

[5] محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي :ص 30

[6] أزمة الإبداع الشعري و تحديات العصر-ندوة- مجلة فصول : العدد1-2 مارس 1987 234

[7] محمد عابد الجابري : الحداثة و التراث . مركز دراسات الوحدة العربية ط1 1991 . ص16

[8] المرجع نفسه :ص17

[9] عبد الإله بلقزيز .نهاية الداعية : ص21

[10] المرجع نفسه :ص 97

[11] محي الدين اللاذقاني : أدباء الحداثة العربية .الإنتشار العربي .ط2 1998 ص 42

[12] عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة (نحو نظرية نقدية عربية .عالم المعرفة.272.ص313-314

[13] المرجع نفسه:ص325

[14] محمود أمين العالم : الوعي و الوعي الزائف في الفكر العربي المعاصر .دار الثقافة الجديدة .ط2 . 1988 ص17

[15] غالي شكري : النهضة و السقوط في الفكر المصري الحديث .الدار العربية للكتاب .1983 . ص114

[16] المرجع نفسه : ص37

[17] تامر سلوم : نظرية اللغة و الجمال في النقد العربي .دار الحوار . ط1. 1983 . ص9